سوق النخاسة في أدبيات العصر. وهذا ما نجده في رسالة الجاحظ عن (القيان) حيث نخرج من قراءة الرسالة بصورة تتحدد فيها صورة الجارية على أنها مخلوق فحشي[8]. ويقرر الجاحظ (أن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها ـ 171/2 وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة... وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة... فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحداً سرها والآخر علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر، وأن الذي تظهر خلاف ضميرها. وتكتب إليهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم. فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به، ولا علم يدعو إليه، ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان، لكفاه ـ 175/2).

يقول الجاحظ هذا القول ثم يختمه بجملة تأتي وكأنها غاية السخرية والمفارقة فيقرر:

(وليس هذا بذم لهن ولكنه من فرط المدح. وقد جاء في الأثر: خير نسائكم السواحر الخلابات).

ما يقرره الجاحظ لا يدخل في معجم الوصف وتوصيف الحال، ولكنه يدخل في باب تقرير حقيقة تلك الكائنات البشرية. فالغدر والغش ليس صفة في الجواري ولكنه غريزة وحقيقة عضوية، وإذا ما ذكر ذلك فليس من باب الذم ولكنه من باب الاطراء لهذا الكائن الذي تمثل حقيقته خير تمثيل، ومارسها على أحكم وجوه الممارسة. وما ذاك إلا لأن منشأ الجارية في منبت الفحش والفساد والرذيلة، وثقافتها (بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق والصبوة، والشوق والغلمة، فهي لو أرادت الهدى

(8) الجاحظ: رسائل 2/144، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1964.